زكي نجيب محمود

يومهم السابع

كانت حرب ٦٧ حربا مدتها في حساب الاعداء ستة ايام ، ظنوا ان سيأتي لهم بعدها سبت الراحة ، لكن دقتهم في حساب أمـوال الناس قد أخطأتهم في حساب الايام والحوادث ، توقعوا بعد نهايـة الايام الستة يوما سابعا يستريحون فيه الى الابد ، واذا بالايام السابع والثامن والتاسع وما تلاها ، واذا بالسنوات الاولى والثانية والثالثة والى ان استأنف القتال حدته هي كلها يوم سادس مكرر ، واذا بحرب الايام الستة في حسابهم ، تصبح حرب الاعوام الستة في حسـاب الفلك ، وسوف يكون سابعها لا سبت الراحة لهم كما توقعوه ، بـل سيكون عليهم يوم الثأر والعذاب ، جزاء ما غدروا وما استكبروا عن صلف مجنون ، فللبحر الساكن غضبة اذا ما عصفت الريح ، وللعـدل والحق عند الله ميزان ، وانكم أنتم يا أبناءنا على أرض سيناء وفـي سمائها وفوق بحرها ، لموكلون بمشيئة الله ان تردوا لنا الارض السليبة والكرامة المهدرة ، والنصر حليفكم بعون الله .

الاهرام
١١ تشرين الاول

هذه بعض سماتنا

عندما تزهر الشجرة او تثمر ، فان لحظة ازهارها أو اثمارهـا لا تكون كسائر اللحظات في حياتها ، لانها لحظـة اكثر أصلا وهدفا ، فشجرة القطن لا تصبح تعبيرا من سواها عن طبيعة تلك الشجرة شجرة قطن بكامل معناها الا عند تفتق الزهرة وظهور الثمرة آخر الامر ، وأما قبل ذلك فهي في طريق الاعداد للهدف ، فأما حققته فحققت طبيعتها ووجودها ، وأما أخفقت فكانت الى حطب الحريق أقرب منها الـى شجرة القطن : ولقد أتصور الشجرة ساعة ازهـارها أو اثمارها ، تستجمع كل كيانها في فعل واحد ، هو فعل الولادة للكائن الجديد ، وربما حدث لاجزائها نوع من التوتر ، لينفرج لخروج الزهرة او الشجرة من عالم الخفاء الى عالم الشهادة .

وقد يكون هذا نفسه هو ما يحدث في حالة الابداع الفني ، فهنالك ارهاصات مبهمة تسبق ذلك الابداع ، وتشيع في كيان الفنان شيئا من القلق الغامض ، ثم ما هو الا أن تجيء اللمعـة فيتحدد الهـدف والطريق ، هكذا يكون الكائن الفرد في حياته ، وهكذا ايضا تكـون الامة ، فلكل أمة لحظاتها الفريدة التي تتبلور فيها أخص خصائصها لا لانها خصائص تظهر فجأة من عدم ، بل لانها كائنة هناك ، تنتظـر اللحظة ـ لحظة الازمات ـ فتتجمع بعد تشتت ، وتتبدى بعد غموض واختفاء ، وفي لحظة كهذه تتقاطع كل الخطوط لتلتقي في نقطـة واحدة ، لو أحسنا تحليلها ورؤيتها ، كشفت لنا عن غوامض النفس وخوافيها .

وأعتقد ان الامة العربية اليوم تعيش لحظة من هذه اللحظـات الكاشفة ، فلكم سأل منا كاتب : من نحن ؟ ما حقيقتنا وأين نكون ؟ لكم قال فينا قائل : اننا في هذه المرحلة المرتجة من تاريخ العالم ، نريد البحث عن هويتنا حتى لانذوب وننمحي في هويات الاخريـن ؟ وها هي لحظة مخبارية نجتازها ، قد تهدينـا الى بعـض الاجابـات عن أسئلة الكاتبين وأقوال القائلين ، فماذا نرى في لحظتنا الراهنة على سبيل الاجمال ، الى ان يتاح لنا سبيل البحث المفصـل المستفيض ؟

نرى أول ما نرى أمة تتحقق وحدتها بفعل موحد مشترك ، فلقد قالها الامام ابن تيمية منذ زمن بعيد ، حيـن قال ان فكرة « الامة » لا تتحقق لمجموعة من الناس الا اذا اشتركوا في « فعل » واحـد ، ان فكرة الامة لا تتحقق ـ عند ابن تيمية ـ لمجـرد ان يعيش افـراد المجموعة على رقعة جغرافية واحدة ، ولا لانهم يشتركون في تـاريخ واحد ، ولا لانهم يتكلمون لغة واحدة ، بل تتحقق فكرة « الامة » في حالة واحدة وبشرط واحد ، هو ان تلتقي فاعلياتهم في فعـل موحـد يستهدف هدفا واحدا ، وذلك لانه بالفعل المشترك يجاوز كل فـرد حدود نفسه لينفتح على الآخرين الذين يشاركونه في اداء ذلك الفعل. ان التجاوز المكاني وحده لا يكفي في ايجاد الرابطة الحيوية العضوية التي تجعل من الامة أمة واحدة ، فالمتفرجـون في دار السينمـا يتراصون متجاورين على مقاعدهم، بل وتتجه انظارهم الـى شاشـة واحدة ، ويتتبعون قصة واحدة ، ومع ذلك فلا شأن للواحد منهـم بمن يجلس على يمينه او على يساره ، دع عنك من يجلسون وبينهم وبينه صفوف ، لكن ما هكذا الحال في فريق الكرة ، فها هنا يتفرق اللاعبون على أرض اللعب ، لكنهم يترابطون معا برباط الفاعليـة الواحدة المشتركة المنبثقة من الداخل ، فالكسب لهم جميعا والخسارة

عليهم جميعا ، وضربات الكرة باقدام اللاعبين تأتي متكاملة يعاون بعضها بعضا على اصابة الهدف المشترك .

هنالك مجموعات بشرية تجمع أفراد المجموعة الواحدة منها « دولة » واحدة ، لكنك لا تشعر بين أفرادها بمثل هذا الرباط العضوي الذي أشرنا اليه ، فسكان الولايات المتحدة لم ينصهروا بعد في « أمة » واحدة ، ولا يصعب على الزائر ان يرى بين الافراد مثل الرابطة التي يترابط بها الشركاء في عمل تجاري واحد او في ادارة مصنع واحد ، هي ما تزال رابطة المصلحة ـ والمصلحة المادية فوق كل شيء ـ ولا غرابة ان يكون أول ما تسمعه ممن تلاقيهم من أفراد ، هو ان يذكر لك المتحدث اليك أصله الاوروبي او غير الاوروبي الذي ينتمي اليه اول الامر . فيقول لك : أنا الماني ، او انا ايطالي وهكذا ، ولقد لحظت أثناء اقامتي هناك فترة ، بعض الجهود التي يبذلها كتابهم نحو « أمركة » الاميركيين في « أمة » ، وليس ذلك بغريب عنا نحن العرب ، وقد رأينا كيف ينتمي الاميركي اليهودي الى ما يتصل بيهوديته قبل ان ينتمي الى وطنه الاميركي .

اذن فمن أبرز سماتنا هذا الرباط الاسري الذي يجعل العلاقة بين افرادنا تجاوز حدود المصلحة الى ما هو اهم من ذلك واعمق ، وهي علاقة قد تخفى عن الرائي في فترات الحياة العادية ، لكنها تشتد ظهورا في لحظات التأزم كاللحظة التي نعيشها اليوم ، ولا يجوز ان نخلط بين مثل هذه العلاقة « الاخوية » التي لا تكون الا بين ابناء الاسرة الواحدة ، وبين تلاحم الافراد الذين جمعتهم المصادفات ساعة الخطر ، كأن تشرف سفينة على الغرق فتظهر بين ركابها روابط لم تكن قبل وقوع الخطر ولن تكون بعد زواله .

سمة أخرى نتميز بها اكثر مما تتميز بها أمة اخرى فيما اعتقد ، وتلك هي الحاسة المرهفة التي نتميز بها بين ما يستحق الاهتمام الجاد وما لا يستحقه ، اننا أمة قطعت على طريق الزمن اكثر من ستة آلاف عام وحملت على كتفيها أربع حضارات متعاقبة ، وهي الآن تدخل في الخامسة ، ومحال ان يكون وراءها هذا الرصيد الضخم من خبرات متراكمة دون ان يترك على وجهة نظرها اثرا باقيا يشبه ما تتركه الاعوام في حياة الفرد الواحد . فعلى خلاف الحدث الغر ، ترى من أثقلته السنون بخبراتها بطيء الانفعال أمام الحوادث . فلا يستثيره منها الا ما يمس صميم الحياة . لقد طبع ليوناردو دافنشي ابتسامة ماكرة على شفتي مونا ليزا ، فلبث النقاد يعلقون ويشرحون لعلهم يكشفون الغطاء عن سر تلك الابتسامة الغامضة ، وفي عقيدتي ان مئات التماثيل التي نحتها الفنان المصري القديم ، بادئا من ابي الهول فصاعدا مع تاريخ الفن عند أجدادنا أسرة بعد أسرة ، تحمل ابتسامة أشد ألغازا وأعمق غورا ، هي ابتسامة من خبر الحياة وسرها ، فأخذ يسخر سخرية ممتزجة بالاشفاق ممن تهزهم صغائرها وعوابر أحداثها . لكنه اذا جد من الامر ما يعلم انه جد ، نفرت همته ونشطت جوارحه الى ان تتحقق على يديه المعجزات ، وتلك هي صورة المصري الى يومنا هذا ، انني كثيرا ما أتلمس ملامح الفلاح المصري ، وهو ما يزال في بقاء الريف ، خصوصا من تقدمت به السن ، فأجد على وجهه وفي نظرات عينيه تلك الرصانة الرزينة ، والحكمة الهادئة ، مع صمت لا يلغو ولا يثرثر ، التي يراها الرائي في تماثيل الاقدمين ... انها فزارة ثقافية صقلت الطبائع وحدت من نزوات الرعونة .. لقد قرأت عبارة تنسب لرجل من رجال الدين المسيحي في أوروبا ابان العصور الوسطى ، وقفت عندها لما فيها من غزارة المعنى ، وهي عبارة يبتهل بها قائلها الى ربه ما معناه : اللهم اعطني الصبر امام ما ليس في وسعي ان اغيره ، واعطني الشجاعة لاغير ما يمكن تغييره ، ثم اعطني اللهم حكمة أميز بها ما يمكن تغييره من الامور وما ليس يمكن ... وتلك الصفات الثلاث التي يبتهل بها هذا الداعي ان يمده الله بها ، هي من سمات المصري بحكم تاريخه وثقافته . فهو يصبر امام ما يتطلب الصبر ، وهو يهم بالتغيير اذا دعت الدواعي ، ثم هو بحكمته يفرق بين ما يستحق ان يتغير وما لا يستحق .

والمصري ، بل العربي بصفة عامة ، متفائل بطبعه ، فهو مهما ضاقت عليه الدوائر ، آمن بكل كيانه ان بعد العسر يسرا ، ولا يجيء تفاؤله هذا عن سطحية النظر كالتفاؤل الذي أجاد تصويره تشارلز ديكنز في شخصية مكوبر ، بل هو تفاؤل صاحب النظرة العميقة التي تعلم ان في الكون تدبيرا يكفل ان يعتدل الميزان ، فلا يكون نقص هنا ولا اجحاف هناك الا ابتغاء تكامل أسمى ، لا يترك مثقال ذرة من الخير او من الشر الا ان يعقب عليه بما يوازنه .

وانظر بعد هذا الى أي مواطن عربي عابر في الطريق ، كيف يقابل اللحظة التي نجتازها ، تجد خصائصه الكامنة في طبعه قد وضحت أمام الابصار : فهو لكل مواطن عربي آخر أخ تجمعهما أسرة واحدة ، وهو على وعي كامل بما تلقيه الظروف عليه من تبعات ، حتى ولو لم يكن ابان الحياة العادية ممن يطيقون تحمل التبعات . وهو هادىء ، متفائل ، يعلم في يقين ان الامور صائرة آخر الامر بارادة الله ـ متمثلة في ارادته ـ الى خير .

الاهرام
١٢ تشرين الاول

ليت عدونا يعرف

ليت عدونا يعلم ماذا يعني التراب المصري للمصري ، ليته يعلم ان المصري تملكه أرضه اكثر مما يملك هو تلك الارض ! يسافر المصري الى غير بلاده او يهاجر ، لكنه أينما حل وحيثما ارتحل يشم عبير مصر . دع الدنيا بأسرها تقل عن سيناء انها كثبان من الرمل وراءها كثبان ، فرمالها في عين المصري ليست كأي رمال ، لرمالها في بصره ألق وفي أنفه شذى ، قد يكون معنى سيناء عند العدو ان جوفها ممتلىء بالمعدن ، او انها هامش لامن بلاده ، ولكنها عند المصري سيناء وكفى ، سواء أكان في جوفها معدن أم كان ذلك الجوف خاويا . هي ليست عند المصري هامشا للامان بل انه ليحميها بروحه كي تنعم هي بالامان . قد يتصور العدو ان تشطر سيناء شطرين : شطرا له وشطرا لنا ، على غرار ما تصور جده شايلوك ان يقتطع له من جسم تاجر البندقية رطلا من اللحم وفاء لدينه ، لكن سيناء في قلب المصري كيان واحد حي يؤلمه ان تقتلع منه قلامة ظفر .

كنت في انكلترا أيام الحرب العالمية الثانية ، وقالت لي ربة البيت الذي جعلت منه مسكني : ان الموت يتربص بنا جميعا لحظة لحظة ، فبماذا توصي لانقل وصيتك اذا ما جاءتك اصابة الموت ؟ قلت لها : وصيتي الوحيدة هي ان يدفن جثماني في أرض مصر .. سألتني متعجبة : أليست الارض كلها سواء بالنسبة الى الموتى ؟ أجبتها : انك لا تدركين علاقة المصري بأرضه ، ولو قلت هذا لمصري لفهم مني ما أريد .

الجنسية عند عدونا كالرداء يلبسه او يخلعه على هواه ، فليس

يرى غرابة في ان يكون روسيا اليوم ، واميركيا غدا ، ثم اسرائيليا بعد ذلك ، كما هي الحال بالنسبة الى رئيسة وزرائه غولدا مائير ، فليته يعلم ان الشمس قد تغير من طبيعتها قبل ان يكون المصري شيئا غير مصري ، انه لا يتردد في جنسيته ولا يختار ، انه مصري منذ ستين قرنا من الزمان ، ذهبت منه اجيال وجاءت أجيال ، لكن اجياله كلها موصولة بحبل سري واحد يربطه بأمه مصر .

ليت عدونا يعلم كيف يرتبط المصري بأمه سيناء ... بل لعله يعلم ، ومن ثم كان كل هذا الحقد في قلبه والغيظ .

الاهرام
١٩ تشرين الاول

النغمة الهادئة

النغمة الهادئة هي نغمة المصري في حياته ، اذا ما أطلقت له تلك الحياة على سجيتها ، لم تعترض سبيلها حوائل وموانع . المصري في حياته العملية مطرد منتظم مهذب ، ينساب انسياب النيل في مجراه ، لا يفاجيء ولا يباغت ، فنهر النيل حتى في فيضانه مقيد بموعده ، كأنما هو ينذر بقدومه لكي لا يأخذ احدا على غرة وخديعة . المصري بانٍ للحضارات صانع للثقافات ، ولولا نغمة حياته المطمئنة الهادئة ما صنع ولا بنى ، ولكنه اذا فاجأته فاجئة استدار لها وأزالها لكي يعود الى هدوئه فيبني ويصنع .

وللانسان في حياته العملية ـ كما للكاتب في كتابته وللمتحدث في حديثه ـ أسلوبه الخاص الذي يميزه من سواه ، وأسلوب الانسان في حياته العملية ـ كأسلوب الكاتب وأسلوب المتحدث ـ هو الجانب المنظور من حقيقته ، وهو مؤلف من مجموعة اختيارات وحذوف ، فهو يختار لنفسه في كل موقف ـ والمواقف الحاسمة من حياته بصفة خاصة ـ هذا الفعل دون ذاك ، يختار في حديثه هذه اللفظة دون تلك ، فهو اذ يختار ويحذف ، يعكس نفسه امام الناس كما يريدها ان تكون ، وحياة المصري كما يبديها في الظروف المعتادة سلوكا وحديثا ، تتميز بهدوء الاعتدال .

انه اذا رضي انسان عن نفسه ، أبداها في تعامله مع الناس ومع الاشياء كما هي على حقيقتها ، لا يدعوه داع ان يسدل عليها أقنعة ليخفيها . ولقد عاش المصري في أزمة النكسة ست سنوات وأربعة أشهر ، خرج فيها على طبيعته ، فأخذه الضيق ، واستبد به القلق ، وتوترت أعصابه حتى لتستثيرها توافه الاسباب ، ثم ما هو بعد يوم واحد من النصر الا ان عادت له طبيعته ، وهانذا ألحظ في كل من أصادفهم حولي من الناس ، أينما توجهت ، وكائنة ما كانت الصلة بيني وبينهم ، هدوءا في النغمة : نغمة الحديث هادئة ، الحركة هادئة ، يزدحم الناس هنا وهناك ولكنه زحام يوشك ان يكون صامتا ، لم تعد وجوه الناس عابسة ، التعاطف والتراحم والتعاون اصبحت في لمح البصر هي قاعدة السلوك ، كشأن المصري اذا ترك لطبيعته .

كنت أتصفح كتابا يؤرخ لاعلام الرجال في الوطن العربي ابان القرن السادس عشر ، فكانت تلفت نظري صور طريفة لرجال يمثلون المعايير المقبولة في حياتنا ، فهم في رأيي ليسوا « اعلاما » بالمعنى الشائع لهذه الكلمة ، ولكنهم نماذج لمتوسط الانسان المصري في حياته العملية ، حين تكون تلك الحياة موضع مدح وثناء من عامة الناس ، وهاك صورة من تلك الصور ، لترى فيها الملامح الرئيسية التي أسلفت القول بأنها هي قسمات من الطابع المصري الاصيل : في هدوئه ، وعذوبته ، وتعاطفه وتراحمه وتعاونه ، وفي شعوره العام بأن كل مصري ـ أو قل ان كل عربي ـ هو واحد من أفراد أسرته ، يعامله كما يعامل اخوته وابناء عمومته .

والصورة التي أقتبسها ، هي لرجل يدعى محمد بن النجار الدمياطي . كان خطيبا لمسجد في القاهرة ، جمع الله له بين العلم والعمل ، فهو في علوم الشرع امام ، وهو في التعبد قدوة ، وكان غاية في التواضع ، يخدم العميان والمساكين ليلا ونهارا ، ويقضي حوائج الفقراء والارامل ، يجمع لهم من اموال الزكاة ما استطاع ان يجمع ، وكان يلبس الثياب الزرق والجبب السود . ويتعمم بقماش من القطن . من عاداته كل يوم ان يتلو بعد صلاة الفجر نحو ربع القرآن سرا ، فاذا أذن الصبح قرأ جهرا قراءة تأخذ بمجامع القلوب ، وكان يخدم نفسه بنفسه ، يحمل الخبز على رأسه الى الفرن ، ويحمل حوائجه من السوق ، ومع ذلك فقد كان ذا هيبة عظيمة ، ولقد حدث له أيام السلطان قانصوه الغوري ان استودعه تاجر مالا ليعطيه لولده بعد موته ، وجاء الولد وهو دون البلوغ ، فأبى ان يعطيه ماله الى ان يبلغ رشده ، فشكاه الغلام للسلطان ، وطلب منه السلطان مال الغلام ، فأقسم للسلطان ان ليس عنده شيء ، ولما بلغ الغلام رشده ، جاءه فأعطاه ماله ، فسأله السلطان في ذلك ، فقال ان فقهاء الشافعية أفتوا بأن الظالم اذا طلب الوديعة ممن اؤتمن عليها ، فلهذا المؤتمن ان ينكرها ويحلف على ذلك ، وأنت ظالم ...!

صورة ـ كما ترى ـ فيها سذاجة قد لا تصلح نموذجا لعصرنا الراهن ، لكن فيها اركانا أساسية هي التي يقام عليها الخلق المصري الاصيل اذا لم تمنع دون ظهوره موانع ، ففيها الهدوء الذي أشرت اليه ، والذي يضمر في ثناياه النظرة الجادة العاملة العاطفة المتعاونة الامينة ، وهي صفات لا تتوافر الا اذا غزرت الثقافة وعمقت بعد ماض طويل عريق . فالنغمة الهادئة في الكلمة وفي الحركة ، هي نتيجة ضبط للجوارح والجام للسان ، فلا تسرع اذا أمكن التأني ، ولا صياح اذا أمكن الهمس ، ولا جزع اذا توافرت للقلب سكينة الايمان ، واذا شئت فانظر الى أسرة ريفية اجتمعت حول طعام العشاء : فلا تهتز الابدان بحركة تزيد على الحاجة ، ولا تنطق الالسنة بلفظة لا تقتضيها ضرورة السياق .

هذه النغمة الهادئة في الحديث ، وفي العمل ، وفي التعامل ، هي صورة حياتنا اذا لم يطرأ عليها طارىء دخيل . لقد قال سقراط ذات يوم لمن جلس بجانبه صامتا : يا هذا كلمني لكي أراك ! وعلى أساس هذا المبدأ السقراطي في ان النفس تكشف عن حقيقتها في نوع الحديث وطريقة السلوك ، نقول اننا ـ وقد أزحنا عن صدورنا كابوس النكسة ـ نعود اليوم الى حقيقة نفوسنا ، من هدوء ينطوي على تاريخ طويل كنا فيه صناع ثقافة وبناة حضارة بل حضارات تعاقبت واحدة بعد واحدة .

الاهرام
٢٦ تشرين الاول